٢٨ مَوعِدٌ مَعَ الغَائِبَة

ها قد مرَّ عام على رحيلك يا ليلى.

كأنما كان ذلك البارحة. ما زال كل شيء في مكانه، كما غادرته: صورتك ما زالت حيث هي، تحتل كل ركن من أركان بيتك في الدوحة، وبيتك في بيروت. وما زالت كل قطعة من الأثاث العتيق الذي جمعته من كل حدب وصوب في مكانه. لم يتغيّر شيء. كل ما حولنا ينطق بلمسات يديك، الثريات المتدلية من السقوف، والسجاد الذي يكسو الأرض، والمرايا التي تتلألأ على الجدران، والمعروضات الرمزية التي تزيّن المحيط في كل زاوية وفوق كل منضدة وعلى كل حائط. كلها بقيت حيث تركتها، تتحدث في صمتها البليغ عنك.

صبيحة هذا اليوم، الذي ختم عاماً على غيابك، كان لي لقاء معك، على ضريحك. تلوتُ الفاتحة حمداً لله، الذي لا يحمد على مكروه سواه، واستمطاراً للرحمة على روحك الندية.

اعذريني يا ليلى إن كنتُ بكيت. إنك لا تحبين مشاهدتي باكياً. ولكن ما الحيلة؟ إن عيني لم تألف وجودك اسماً على حجر.

اعذريني إذا كنت للحظة أحببتُ الضريح وفوقه الحجر، لأنه مثواك. أحببته لأنه يُؤويك.

هل تذكرين يا ليلى يوم أقبلتِ عليّ لتبلغيني أنك قررتِ اعتناق الدين الحنيف الذي أدين به. فسألتُك ما إذا كنتِ قد فكّرتِ بالأمر مليًّا، وما إذا كنتِ مقتنعة بما أنتِ مقدمة عليه. فبادرتِني بالقول: «ألم يكن الزواج قراراً بيننا ملزماً بحياة واحدة»؟ وعندما كررتُ عليكِ سؤالي كان جوابك مفحماً: «لقد صمّمتُ على أن أُدفَن معك في جدث واحد».

اعذريني يا ليلى على عتاب رقيق أسوقه: شئتِ أنتِ أن تكون حياتنا واحدة، ثم تركتِني وحيداً، تؤنس وحدتي قرّة عينك وداد، ووحيدها «الطبشان»، كما كان يحلو لك أن تناديه. لقد صمدتِ طويلاً صمود الأبطال في مواجهة أعتى الظروف الصحية التي حاصرتك. أما كان بإمكانك أن تصمدي لمدة أطول كي يكون لقاؤنا اليوم على غير ما كان.

أستغفرك يا ربي. إنها مشيئتك. ولا مردّ لمشيئتك.

سبحان الذي منحكِ القدرة الخارقة على مغالبة الوجع، على قهر المرض العضال، على تحمّل الجراحة بعد الجراحة. فكانت حياتكِ كفاحاً عنيداً، كفاحاً خالصاً لوجه المحبة كي تبقى حياتنا واحدة.

إن أنسَ يا ليلى لا أنسَ لحظة أتيتُكِ في مخدعكِ، قبل نحو أسبوعين من رحيلك، فيما أنتِ تغالبين الوهن والألم. فألفيتكِ كسيرةَ النفسِ ربما لأول مرة في حياتنا المشتركة. ما كان هذا عهدي بكِ. وعندما تمتمتُ بعض كلمات التشجيع لك، ربما بنبرة المرتاع والملتاع، سمعتُ منك ما شجّ قلبي، وذلك إذ صفعتِني بالقول بصوت هادىء خفيض حزين: «هل من المعقول أن أبارحك بعد ملازمة دامت ٣٢ سنة»؟

بعد عام كامل من الفراق، أنا اليوم يا ليلى على موعد معك، وإلى جانبي ودادك وحفيدك.

كان هذا الموعد لا يبارح تفكيرنا، أنا ووداد، منذ أشهر عدة. فما كنا نخطط لحركة نقوم بها إلا وهذا الاستحقاق نصب أعيننا. فكل ما كنا نرتقب كان يجب أن يكون قبله أو بعده. وعندما أزف الموعد لم نكن ندري ماذا نفعل. فقررنا أن نخلو إليك، فنقضي يومنا، يومك، في بيتك، في البيت

الذي سكبتِ ذوقك الرفيع في تصميمه طولاً وعرضاً وتقطيعاً وتجميلاً، والذي شيّدتِه بتضحياتك وصبرك وحبك، حجراً حجراً.

هذا البيت، هل تذكرين كيف وُلد في تفكيرنا؟ هل تذكرين كيف أننا اختلفنا في وجهة النظر حول قبول عرضٍ تلقيتُه للعمل مستشاراً في الكويت، فكنتُ أنا محبذاً وكنتِ أنتِ رافضة ضنًّا منك بمنصبي أستاذاً في الجامعة الأميركية في بيروت. فاحتكمنا إلى أستاذي الشيخ سعيد حمادة فأشار علينا بقبول العرض لسنة واحدة إذا كان ذلك سيمكّننا من شراء شقة خاصة بنا. فأذعنتِ للحكم. وبعد سنة كنتِ أنتِ التي طلبتِ التجديد سنة أخرى، ثم كنتِ أنتِ التي أشرتِ بالتمديد ثلاثة أشهر إضافية حتى نهاية الصيف بحيث أعود للتدريس في بداية العام الجامعي. فكان ما شئتِ. وكان أن ادّخرنا، بفضل تدبيركِ، ما يكفي لشراء أرض وبناء البيت الذي كنتِ تحلمين به، متجاوزين مشروع الشقة الذي حملنا أصلاً إلى الكويت.

نقضي اليوم في بيتك، مستودع ذاتك، لنستعيد أنسك، ورهافة حسّك، ودفء ملمسك.

أنا لا أنسى يوم ضاقت بنا الحال بعض الشيء إثر مغادرتي الحكم في المرة الأولى، فقلت أمامك، ظنًّا مني بأنني بذلك أهدّىء من روعك: «إن علينا ألا نبالي. فعند الاضطرار نستطيع في أية لحظة بيع البيت للاستعانة بحصيلته». فجاءني ردّك للتوّ جازماً بالقول: «هذا لن يكون ما دمتُ حية».

كوني يا ليلى مطمئنة: الحديقة الداخلية ما زالت حيّة بذكرك. إنك زرعتِها بيديك غرسة غرسة، ورعيتِها بجوارحك ورقة ورقة وزهرة زهرة فبقيتْ وفيَّةً لك، خضراء مثل عينيك.

ولكن الببغاء يا ليلى مات. والكنارات ماتت. وحتى العصافير التي كانت تغرّد على الشجر حول البيت سكتت. ولم نعد نسمع للنسيم همساً بين الأغصان في الحديقة. والمنظر الجميل الذي كنت تطلّين عليه من شرفة بيتك، فتناجين الوادي الأخضر والبحر الأزرق الوادع، غدا بعدك كئيباً، موحشاً. كأنما الصخر أمسى أكثر نتوءاً وقسوة. كأنما الوادي أمسى أقل

اخضراراً ونضارة. كأنما البحر أمسى مضطرباً عكِراً. كأنما النسيم أضحى حائراً.

كل ما حولنا يا ليلى ما زال على حاله، تماماً كما غادرتِه، ولكنه مع ذلك بات أقل رونقاً، أقل جمالاً، أقل دفئاً، أقل حياةً.

عفوك يا ليلى إن كان واجب وطني قد شغلني عنك لحظة من الزمن خلال حربك مع المرض. أرجو ألا يكون حصل ذلك.

كانت أنفاسي تُحصى علي بطبيعة الحال، وأنا في سدّة المسؤولية، في ما أُقبل عليه أو أُحجم عنه خلال زمن الشدة العاصفة. كان زمن المكابدة لمغبّة ما كان يدور على غير صعيد: بسبب الانقسام المدمّر خلال فترة الفراغ في السلطة، ومن جرّاء حال التمرّد على الشرعية التي كان يتصدّرها القائد السابق للجيش، وبفعل الاقتتال الانتحاري بين فريقين في الشرقية وبين فريقين آخرين في الغربية، وبنتيجة التدهور المريع في معطيات المعيشة وفي المسار الاقتصادي والاجتماعي العام، ومن جرّاء تطورات الواقع في الجنوب تحت وطأة الاحتلال الإسرائيلي الغاشم، وبسبب التطورات الخارجية وعلاقات لبنان في الخارج وارتباطها بمعارج الأوضاع الداخلية في لبنان.

عفوك يا ليلى إن كنتُ قد قصّرت حيالَك لحظة واحدة خلال ليل أو نهار، وأرجو ألّا أكون قد فعلت. فما كان بإمكاني إغفال شأن من كل هذه الشؤون التي وقعت على عاتقي وأنا في سدّة المسؤولية. فأنتِ أولى بالعفو عني من التاريخ، أو من الضمير الوطني، لو قصّرتُ في شأن من هذه الشؤون. وما كنت أطمع بعفو من المواطنين الطيبين الصابرين وهم على غير علم بما كنتُ أكابد إلى جانبك.

أنت في ما عانيتِ وكابدتِ شهيدة من شهداء هذا الوطن.
رحمك الله. غادرتِنا جسداً، وبقيتِ معنا روحاً.
وسنبقى على موعد كل يوم.
١٩٩١/٥/١٢